توضيح التربية على المنهج من خلال دروس مدرسة الحج

2024-05-10

الحمدُ لله الذي جعلَ الحجَّ منارةَ التوحيدِ الكُبرى، ومَعْلَمةَ الإيمانِ والتربيةِ العُظمى، هدمَ به شعائِرَ الجاهليةَ والوثنيةَ، وأقامَ به الملَّةَ الإبراهيميةَ الحنيفيةَ، لتهتَدِي بها جموعُ البشرية، نحمدُه سبحانه ونشكرُ له، ونُثنِي عليه ونُمجِّدُه، أتمَّ على الحجّاج نعمتَه، وأعانَهم على أداء نُسُكهم بفضلِه ومنَّتِه. فسبحانه من إله جَعَلَ لِمَا شَرَعَ مِنَ العِبَادَةِ حِكَمًا وَغَايَاتٍ، وَمَقَاصِدَ سَامِيَاتٍ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. جَعَلَ شَعِيرَةَ الحَجِّ تَنْمِيَةً لِلإِيمَانِ وَاليَقِينِ، وَشَرَّفَ عِرَاصَهُ الطَّاهِرَةَ بِجَعْلِهَا مَهْبِطًا لِوَحْيِهِ الأَمِينِ، وَمَهْوًى لأَفْئِدَةِ عِبَادِهِ المُوقِنِينَ، وَمَحَلاًّ لِصَفْوَةِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ. وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وصفيّه من خلقه وخليله.

إجماعُ الهدى في حبّ أحمد أُدرِجا * فما لي سواه في الشدائد مُلتجا

إذا ضاق بِي أمرٌ وكانت وسيلتِي * إلى الله مدحي للنبيِّ تفرّجا

ولم أر في نيْل المنى كتوسّلٍ * به سِيَّما إن غَلَّب السائلُ الرّجا

فيا ربّ فاجعل لي بجاه محمّدٍ * حبيبِك من كلّ الشّدائد مَخرجا

ويسِّر إلى البيت العتيق وِفادةً * لعبدك لا يشكو كَلالاً ولا وِجا

وأخرى إلى خير الورى وإقامةً * هناك فما أحلى المُقام وأبهجا

فيا طِيب ذاك العيشُ لو نِلتُه فما * أشدَّ إذًا فقري إليه وأحوجا

وصلِّ وسلِّم يا إلاهي عليه ما * غدَا قاطعًا في سَيْره البدرُ أبْرُجا

صلاةً تفوق الحصر منك أُعِدُّها * لصالح أعمالي لبابك مَعرجا

فصلّ اللّهمّ وسلِّم وبارِك على سيّدنا محمّد. وعلى آله عقود الجواهر النفيسة واللآل. وصحابته بحور الكرم والفضل والنوّال. صلاة تمنّ بها

علينا بحجّ بيتك الملحوظ بعين التعظيم والإجلال. وتجعلنا بها ممّن وقف بعرفة. وحلق ولبّى. وطاف وسعى. وزار قبر نبيّك قبل حلول الآجال. وتبلّغنا بها من رضاك ورضاه غاية المقصود والآمال. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. تستقبل أمّة الإسلام موسمًا عظيمًا بفضائله، جليلًا بفوائده. عميقًا بآثاره؛ إنه موسم الحج. الذي يؤدّي فيه المسلمون ركنًا من أركان الإسلام. ومبانيه العظام، هذه العبادة الجليلة هي في حقيقتها مدرسة عظيمة. تحمل في طيَّاتها الكثير من الدروس والعبر. التي يَتربّى عليها المسلمون، وفي رحاب مناسكها يتتلمذون ويتفيّؤون معالم قِيَمِها، ويُبرزون للعالم أجمع من خلال تجمُّعهم العالمي ومؤتمرهم السنوي هدايات الإسلام ومحاسنه. أيّها المسلمون. إنّ أوّل دروس مدرسة الحج يتجلّى في قول الله تعالى في سورة الحج: ((وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ))، فالحكمة من بناء البيت العتيق إنّما هي توحيد الله تعالى. وإفراده بالعبادة، والحج من خلال مناسكه يُعمِّق قضية التوحيد. ويؤسِّس العقيدة على الإخلاص لله وحده، ونفي الشريك عنه، وفي أوّل ذِكْر يلهج به الحاج يرتسم التوحيد على الشِّفاه. وتعلو به الحناجر، ففي التلبية تتجلّى هذه المعاني؛ قال سيّدنا جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما واصفًا حَجّة النبي صلى الله عليه وسلم كما في صحيح مسلم: ((فأهلَّ بالتوحيد: لبّيك اللهمّ لبَّيك، لبّيك لا شريك لك لبَّيك، إنّ الحمدَ والنّعمةَ لك والمُلك لا شريك لك))؛ فمدرسة الحج تعزِّز جانب العقيدة الصحيحة، وتَحْمي حِمَى التوحيد؛ حتى يُحقِّق المسلم التوحيد الخالص، واقعًا في قلبه وقالبه، ويَنبذ الخُرافة، ويَصْرف جميع العبادات كلها لله وحده لا شريك له، حُنفاء لله غير مشركين به. ومدرسة الحج تُبرز أهمّ قضية من قضايا العقيدة، وهي البراءة من المشركين ومخالفتهم؛ قال تعالى في سورة التوبة: ((وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ))، وخلال رحلة حَجّه صلى الله عليه

وسلم، حَرَص على مخالفة المشركين، فقد لبَّى بالتوحيد. خلافًا لهم في تلبيتهم الشركية، وأفاض من عرفات. مخالفًا لقريش؛ حيث كانوا يُفيضون من طرف الحرم، كما أفاض من عرفات بعد غروب الشمس. مخالفًا لأهل الشرك الذين يدفعون قبل غروبها، ولمّا كان المشركون يدفعون من المشعر الحرام أيْ (مزدلفة) بعد طلوع الشمس، فخالفهم صلى الله عليه وسلم، فدفع قبل أن تطلع الشمس. وفي خطبة حجة الوداع أبطل عليه الصلاة والسلام عوائد الجاهلية ورسومَها؛ حيث قال: ((ألا إنّ كلَّ شيء من أَمْر الجاهلية تحت قدمي موضوع))؛ أيّها المسلمون. ومدرسة الحج تربية على متابعة الهدي النبوي في مناسك الحج؛ إستجابة لقوله صلى الله عليه وسلم: ((خذوا عنّي مناسكَكُم))، فيتربّى الحاج على اِلتِزام السنّة. والإهتداء بها في جميع شؤون حياته. قال تعالى في سورة الأحزاب: ((لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)). وفي مدرسة الحج يتذوَّق المسلم لذّة الإتّباع. ونعيم التأسّي. وحلاوة الإقتداء، وينفكّ من أَسْر البدعةِ وقيودِها، وتنجلي عنه ظُلمتُها، فيسعد بالنُّور بعد الظُّلمة، وبالسَّعة بعد الضِّيق، وباليُسر بعد العُسر. أيّها المسلمون. مدرسة الحج تُربّي على الأُخوّة الإسلامية، فالله تعالى يقول في سورة الحجرات: ((إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ))، فالحاج يستشعر معنى الأخوَّة الإسلامية من خلال لقائه بإخوانه المسلمين من شتّى بقاع الأرض. تصافحت الأيدي، وتآلفت القلوب، وغمرتهم المحبّة والتعاون والتسامح. في مدرسة الحج يتعلّم المسلمون الوِحدة والإتّحاد؛ فالمسلمون قَدِموا من كل فجّ عميق. اِختلفت بلدانُهم وألوانُهم ولغاتُهم، لكنهم اِجتمعوا واتّحدوا في لباس واحد. ومكان واحد، وجاؤوا لرب واحد. طمعًا في عفوه ورحمته، ومظاهر الوِحدة والإجتماع بين الحجّاج في المناسك ظاهرة لا تخفى على ذي بصيرة. أيّها المسلمون. مدرسة الحج تُربّي الحاجَّ على ذِكْر الله وتمجيده وتعظيمه، فالذِّكْر من أعظم المقاصد التي أرادها الله من عبادة الحج؛ قال تعالى في سورة الحج: ((وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا

وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ)). ورحلة الحج من بدايتها إلى نهايتها ذِكْرٌ لله عز وجل، فالحاج يَذكر الله في تلبيته وطوافه وسعيه، وفي عرفات يدعو الله ويرجوه، وفي مزدلفة يذكره ويوحِّده؛ يقول الله تعالى في سورة البقرة: ((فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)). وأيّام موسم الحج وعشر ذي الحجة والتشريق أيّامُ ذِكْرٍ لله تعالى. قال سبحانه في سورة البقرة: ((وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ)). أيّها المسلمون. وفي ذَبْح الهدي والأضاحي ذِكر الله وتوحيده؛ قال تعالى قي سورة الحج: ((وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ))، وقال سبحانه أيضا: ((وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ))، ويقول صلى الله عليه وسلم كما في صحيح مسلم: (((أيّامُ التّشريقِ أيامُ أكلٍ وشربٍ وذكرٍ لله))؛ في لزوم ذِكر الله عز وجل يتلذَّذ الحاج بطَعْم المناجاة، ويأنس بذِكْر ربه وخالقه عز وجل؛ لِيَخرج من مدرسة الحج وقد تعلَّقت نفسه بالذِّكر. ورَطَب لسانه به، فيداوم على ذِكْر الله ما بَقِيَ في حياته بقية. أيّها المسلمون. الحج مدرسة جامعة لتربية النفوس على الأخلاق والقِيَم الفاضلة؛ قال تعالى قي سورة البقرة: ((الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ)). الحج تزكية للنفوس وترويض على الصبر والحِلم، والإعراض عن الجاهل، وتحمُّل المشقّة في سبيل مرضاة الله تعالى؛ قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: ((مَن حَجَّ ولم يَرْفُث ولم يَفْسُق، عاد من حجّه كيومِ ولدتْه أُمُّه)). ومن أعظم ما يَتربّى عليه المسلم في الحج: ضَبْط الجوارح وكفُّها عمّا حرَّم الله عز وجل، والبُعد عن الفسوق والعصيان والمخاصمة والجهل. ولعلّ الغاية من محظورات الإحرام: تربية وتدريب النفس على تَرْك المحرَّمات، وهَجْر الرذائل والقبائح، والبُعد عن الفسوق

والآثام، ورحلة الحج تُسْفر عن أخلاق المسلم. وتُسهم إسهامًا عظيمًا في تعديل السلوك السيّئ إلى الحَسَن، فكم من حاج عاد من رحلة حجّه بوجه جديد. ونفس راضية مطمئنّة. أيّها المسلمون. والحج مدرسة رَحْبة للصبر والتّصبّر، تَبْرز فيه أنواع الصبر الثلاثة؛ فهو صبرٌ على طاعة الله تعالى؛ والحج صبرٌ عن معصية الله، فإنّ الحاج يَمتنع عن بعض المباحات؛ كاللباس والطِّيب، ووَطْء الزوجة، وحَلْق الشعر، وبقية المحظورات، فصَبْره بعد ذلك عن المعصية من باب أَوْلى. والحج صبرٌ على الأذى والمصاعب والمشاقّ. التي قد يتعرّض لها خلال أداء المناسك؛ قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم: ((ومَن يَتَصَبّر يُصَبِّرْه الله))؛ فالحج مدرسة عملية للأخلاق. ومنظومة قِيَم يستلهمها الحجّاج. أيّها المسلمون. مدرسة الحج تربية للنفس على النظام والإنضباط، وعدم الفوضى؛ فالمواقيت لا تتجاوز إلا بإحرام، وهناك الفِدية والجزاء لمن ارتكب محظورًا. ومن يتأمّل المناسك يرى فيها دِقّة عجيبة في إدارة الوقت، فالحج له ميقات زماني ومكاني، ولعرفة ومزدلفة حدود وزمان للوقوف والمبيت، والرمي له زمان وعدد وترتيب، وجَدْوَل الحاج مُنظَّم تَبَعًا لمناسك الحج، وهذا كله يجعله منضبِطًا في أوقاته، دقيقًا في مواعيده. وفي الحج معالجة للنفس بتعظيم حرمات الله، وتوقير شعائر الله، والأزمنة والأماكن الفاضلة، فالحاج يتذكّر حرمة الزمان والمكان، فالزمان هو الأشهر الحُرُم، والمكان هو البلد الحرام، وكفى بذلك رادِعًا عن الحرام، وزاجرًا عن انتهاك حدود الله. قال تعالى في سورة الحج: ((ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)). أيّها المسلمون. ومدرسة الحج إعلاء لشأن المرأة. وبيان قدرها ومنزلتها في الإسلام، وفي الحج صُوَر متعدِّدة من تكريم المرأة ورعايتها وصيانتها، ففي صحيح مسلم عن ابْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَخْطُبُ يَقُولُ: ((لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ، وَلَا تُسَافِرِ الْمَرْأَةُ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ. فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ امْرَأَتِي خَرَجَتْ حَاجَّةً، وَإِنِّي اكْتُتِبْتُ فِي غَزْوَةِ كَذَا وَكَذَا،

قَالَ: انْطَلِقْ فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ)). ولمّا لم يلزم الإسلام المرأة بالجهاد حفاظًا عليها وتقديرًا لضَعفها، أبدلها الله مكانه الحج والعمرة، ففي الحديث الذي أخرج أحمد وابن ماجه: أنَّ أمّ المؤمنين السيّدة عائشةَ رضيَ اللهُ عنها سألت رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((هل على النساءِ جهادٌ؟ قال: نعم. جهادٌ لا قتالَ فيه: الحجُّ والعمرةُ)). وفي خطبة الوداع تأتي الوصية بالنساء: ((ألا واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنّهنَّ عوانٌ عندكم)). أيّها المسلمون. الحج مدرسة للتيسير والسَّعَة، فاليُسر والسهولة ورَفْع المشقّة سِمةٌ من سمات دين الإسلام، وتظهر صُوَر ذلك بيّنة في الحج، فالحج لمن استطاع إليه سبيلًا، وقد وقف النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع بمنى للناس يسألونه، فما سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء قُدِّم ولا أُخِّر إلا قال: إفعَل ولا حرج، وأَذِن لعمّه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أن يَبيت بمكة ليالي منى من أجل سقايته، والإذن للضَّعَفة من النساء والصبيان بالإفاضة من مزدلفة ليلًا ورمي جمرة العقبة قبل وقتها، وغير ذلك من شواهد التيسير والبُعد عن التعسير على الحجاج، بل إنّ التخيير عند الأمر فيه من التيسير والتسهيل الشيء الكبير، فأنتَ مخيَّر في حجك بين التّمتّع والقران والإفراد، ومخيَّر بين الحَلْق والتقصير، ثم أنتَ مخيَّر في التعجيل أو التأخير نهاية الحج، ولا شكّ أنّ هذا درسٌ عظيم للدعاة والمربّين، ولكل مسلم في اِتّباع التيسير والتخفيف، والبُعد عن التعسير والعَنَتَ والمشقّة على الآخَرين؛ عملًا بقوله صلى الله عليه وسلم: ((يَسِّروا ولا تُعَسِّروا، وبَشِّروا ولا تُنَفِّروا)). أيّها المسلمون. وفي مدرسة الحج تعظيم لشأن الأمن والسلام، وبيان رسالة الإسلام في الحفاظ على مقوِّمات الأمن الشامل واستتبابه؛ ذلك أنّ الله تعالى عظَّم شأن بيته الحرام، وحرَّم مكة منذ خلق السماوات والأرض؛ قال تعالى في سورة النمل: ((إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا))، وقال سبحانه في سورة البقرة: ((وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا))، وقال صلى الله عليه وسلم يوم فتْح مكة: ((إنَّ مَكَّةَ حرَّمَها اللَّهُ تعالى ولم يحرِّمها النَّاسُ. ولا يحلُّ

لامرئٍ يؤمنُ باللَّهِ واليومِ الآخرِ أن يسفِكَ بِها دمًا أو يعضدَ بِها شجرةً))، وقد توعّد الله سبحانه مَن همَّ بعمل سوء في الحرم، فقال في سورة الحج: ((وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ))، فالحاج المسلم يستشعر قُدسية الحرم وعظمة المشاعر. قال تعالى في سورة العنكبوت: ((أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ)). إنّ من أجلّ دروس الحج حصول التقوى؛ فالتَّقوى غاية الأمر، وجِماعُ الخير، ووصيَّة الله للأوَّلين والآخِرين، والحجُّ فرصة عُظْمى للتزوُّد من التَّقوى؛ قال تعالى في سورة البقرة: ((وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)). فهذه بعض من دروس مدرسة الحج، فما أعظم مدرسة الحج حين تهب الحاج ميلادًا جديدا يفضل على ميلاده من بطن أُمّه! كيف لا وهو ميلاد الهداية والصلاح؟! فطوبى لمن تربّى في مدرسة الحج، فعاد من حجّه مخلوقًا جديدًا وشخصًا مِعطاءً! نسأل الله تبارك وتعالى للمسلمين حجًّا مبرورًا وسعيًا مشكورًا وذنبًا مغفورًا، اللهم سلِّم الحجّاج والمعتمرين، وردَّهم لديارهم سالمين غانمين. اللهم اجعلنا ممّن يستمعون القول فيتّبعون أحسنه، اللهم إنّا نسألك علماً نافعاً. وقلباً خاشعاً. ولساناً ذاكراً. وعملاً صالحاً مُتقبَّلاً غير مردود، اللهم فقّهنا في الدين، وعلّمنا ما ينفعنا في الدنيا والآخرة، واجعلنا من عبادك الفائزين، بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين يا ربّ العالمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. اهـ